واحداً من هؤلاء لأدرك فى قليل ؛ وليس مبتدع شريعة من نفسه ، وإلا لما غبر فى قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله ؛ وليس صاحب فكرة تعمل أساليب النفس فى انتشارها ، ولوكانه لحملهم على محضها وممزوجها ؛ وليس رجلا متعلقا بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل ايمان يوم كفر يوم ؛ وليس مصلح عشيرة يهذب منها على قدر ما تقبل منه سياسة ومخادعة ؛ ولا رجل وطنه تكون غايته أن يشمخ فى أرضه شموخ جبل فيها ، دون أن يحاول ما بلغ اليه من إطلاله على الدنيا إطلال السماء على الارض ؛ ولا رجل حاضره إذ كان واثقا دائما أن معه الغد وآتيه ، وإن أدبر عنه اليوم وذاهبه ؛ ولا رجل طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس الجائع لبطنه ؛ ولا رجل شخصيته يستهوى بها ويسحر ؛ ولا رجل بطشه يغلب به ويتسلط ؛ ولا رجل الأرض فى الأرض ، ولكن رجل السماء فى الأرض .

هذه هى حكمة الله فى تدبيره لنبيه قبل الهجرة ، قبض عنه أطراف الزمن ، وحصره من ثلاث عشرة سنة فى مثل سنة واحدة ، لا تصدر به الأمور مصادرها كى تثبت أنها لا تصدر به ؛ ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من قوته وعمله . وكان صلى الله عليه وسلم على ذلك وهو فى حدود نفسه حيث مكانه يتسع فى الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه ، وكأنما كانت شمس اليوم الذى سينتصر فيه ، قبل أن تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة ، مشرقة فى قلبه صلى الله عليه وسلم .

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه ، لأنه من سير الكون كله ؛ والسحابة لا يشعلون برقها بالمصابيح ، ومع النبى من مثل ذلك برهان الله على رسالته ، إلى أن نزل قوله تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » لحل الفصل ، وانطلقت الصاعقة ، وكانت الهجرة .

تلك هى المقدمة الالهية للتاريخ ، وكان طبيعيا أن يطرد التاريخ بعدها ، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرت به أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك ؟

مصطفى صادق الرافعى

٥ — صور من التاريخ الاسلامى

الهجـــرة

للاستاذ عبد الحميد العبادى

كان من أثر الاتجاه المادى الحديث فى فهم حوادث التاريخ وتعليلها أن أصبح المؤرخون أشبه شىء بالفلاسفة الكليين القدماء الذين كانوا يجردون الانسان من عاطفة الخير ، ويعتقدون أنه أنانى بطبعه ، لا يصدر عنه الخير الا رئاء ونفاقا ، ولكن من حسن حظ الحقيقة والفضيلة أن بعض أحداث التاريخ يكذب هذه الدعوى وينقضها نقضا صريحا ، ولست أجد فى التاريخ الاسلامى انقض لتلك الدعوى وأشد تكذيبا من حديث الهجرة التى وقعت زمن النبوة ، سواء أكانت هجرة الحبشة أم الهجرة الى المدينة ، ففى كلتا الهجرتين تجد الاخلاص للعقيدة مجسما محسوسا ، والتنزه عن حطام الدنيا واضحا ملموسا . وإلى القارىء أسوق المقال الآتى توضيحاً لهاتين الهجرتين فى ضوء الحياة العامة التى ابتعثتهما وأدت اليهما

* * *

لقد حمل الاسلام من أول الأمر على ما كان لقريش من نظم بالية عتيقة حملة عنيفة لا مواربة فيها ولا هوادة . فكان محمد يقرع أسماع قومه بما يتنزل عليه من القرآن ناعيا عليهم وثنيتهم المنحطة ، ونظامهم الاجتماعى الذى فرقهم أغنياء وفقراء وسادة وعبيداً ، مهجنا تكثرهم بالاحساب والانساب ، مقبحا طرقهم الملتوية فى المعاملات من تطفيف الكيل والميزان وأكل أموال الناس بالباطل . محذراً لهم ان هم أصروا على عتوهم واستكبارهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم عندما أعرضت عما بعث به اليها الرسل من أسباب الهداية والاصلاح

لم يجب هذه الدعوة التى تكفلت بخيرى الدنيا والآخرة إلا فريق قليل العدد وسيط المكانة فى المجتمع القرشى . أما الملأ من قريش فرأوها دعوة صريحة الى الفوضى وقلب الاوضاع . ورأوا فى محمد ثائراً يريد هدم النظم التى درجت عليها الجمهورية

المكية من قديم . ثم من يدريهم لعلهم ان هم اتبعوه التات عليهم الامر واضطرب الحبل ، فان الهدم عادة أيسر من البناء . تلك كانت حجتهم فى عدم متابعته ، وهى حجة الجامدين على المصلحين فى كل زمان ومكان .

وكان موقف قريش من محمد أول الأمر سلبيا محضا . ولكن محمدا كان النشاط والباقة والفصاحة وقوة الخلق مجتمعة ، فوجدت قريش نفسها بازاء رجل لا كالرجال ، وخصم ليس كغيره من الخصوم ، فهى إن لم تعاجله عاجلها ، وإن لم تقض عليه قضى عليها . لذلك أخذت تهج فى مقاومته خطة ايجابية تدرجت فيها تدرجا . فكانت أول الأمر تستهزىء به وبدعوته وبمن اتبعه ، فهو شاعر وساحر ومجنون ، ودعوته انما هى محض خداع وغرور ، وأتباعه ليسوا الا أراذلها وسفلتها ، ثم جعلت تحاول اعجازه ومعاياته . ان يكن صادقا فيما يدعى فليحول جبال مكة جنانا وأنهارا ، أو فليكن له بيت من زخرف ، أو ليرق فى السماء ، أو فليسقط السحاب عليهم كسفا ، أو فليأت بالله والملائكة قبيلا . ثم انتقلوا من هذه المعاياة الدالة على قصر عقولهم الى التعريض له بالمال والسلطان . فلما أعيتهم فيه الحيل ورأوا وقوف عشيرته دونه أخذوا يفتنون أصحابه بالأذى والعذاب . فمنهم من كان يثبت على رأيه وعقيدته ، ومنهم من كان يفتن من شدة البلاء .

عند ذلك أمر الرسول أصحابه بالهجرة التى هى آخر ما يلجأ اليه الحق الضعيف فى مقاومة المبطل القوى . أمرهم بالهجرة الى أرض الحبشة فهى أرض قديمة الصلة بمكة ، وبها ملك نصرانى رشيد لا يضام من يلجأ اليه ويحتمى بحماه .

فخرج من مكة فى شهر رجب من سنة خمس للنبوة زهاء مائة مسلم ومسلمة ، وكلهم جاز البحر الاحمر من الشعيبة الى بر الحبشة ، فتلقاهم النجاشى لقاء حسنا وأذن لهم فى المقام بارضه آمنين على دينهم وأنفسهم . وقد أبى أن يخفر ذمته لهم عندما ارسلت اليه قريش فى رد اللاجئين اليه . فلما تبدلت الاحوال بالحجاز وعلا شأن الاسلام بعث هؤلاء المهاجرون يعودون الى الحجاز . وكانت عودة بقيتهم الى المدينة سنة سبع للهجرة أى بعد أن لبثت بارض الحبشة نحو خمسة عشر عاما ، وقد جزت الرواية الاسلامية النجاشى عن صنيعه هذا بأن اعتقدت اسلامه ، بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد صلى عليه عندما بلغته وفاته .

ولما رأت قريش خروج من خرج الى الحبشة من اصحاب محمد أرادت ان تحسم مادة الخطر فاجتمعت كلمتها على حبس محمد وعشيرته من بنى هاشم والمطلب فى بعض شعاب مكة ، وعلى أن يقطعوا كل أسباب الاتصال بينهم وبين جمهور قريش ، وقد أنفذت هذا الحكم ، وقضى بنو هاشم والمطلب فى الشعب نحو ثلاث سنين قاسوا فيها جهدا جاهدا حتى لقد كان يسمع صوت صغارهم من وراء الشعب وهم يتضورون جوعا . واخيرا قام فى قريش من عطفته عليهم عاطفة الرحم والقرابة فسعى فى اخراجهم من الشعب فأخرجوا

على أن الرسول لم ينعم بتلك الحرية التى سيقت اليه طويلا . ففى السنة العاشرة للنبوة أصيب بفقد عمه أبى طالب وزوجه خديجة ، فخلا الميدان من النصير الذائد ، وخلا البيت من الحبيب المؤنس . واصبح محمد وجها لوجه أمام عدو حنق عليه كان يترقب فيه الفرصة ، فلما امكنت استغلها استغلالا . فجعل يأخذ عليه المذاهب ويعزى به السفهاء يتعمدونه بالأذى والهوان

عند ذلك أخذ الرسول يفكر فيما كان قد أشار به على أصحابه منذ سنين عند ما اشتد تحامل قريش عليهم : أخذ يفكر هو أيضا فى الهجرة . لقد دلته تجاريب سنوات عشر على أن دعوته توشك أن تذهب بمكة صرخة فى واد ونفخة فى رماد ، واذا ففيم المقام بواد غير ذى زرع حقيقة ومجازا ؟ فليهاجر ! ذلك ما قر عليه رأيه . ولكن على ألا يتخطى حدود بلاد العرب فهو مبعوث الى العرب أولا والى سائر الناس أخيرا . فليخرج الى اقرب قرية عربية من مكة : الى الطائف ، لعل ثقيفا تجيره حتى يبلغ رسالته . ولكن ثقيفا لم تكن أبر به من قريش ، فقد أعرضت عن سماع دعوته وضنت عليه بجوارها ، ثم زادت فأغرت به سفهاءها ، فما زالوا يتعقبونه حتى ألجأوه هو ومولاه زيد بن حارثه الى حائط من حوائط ثقيف . وهنا — وقد خلا الى نفسه وربه — فاضت أشجانه واعتلجت فى صدره همومه ، فانبعث يناجى ربه « اللهم اليك اشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ! يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته امرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى . ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك »

ثم نهض من مكانه يريد مكة فلم يدخلها الا فى جوار سيد من سادا تها هو المطعم بن عدى . وكف محمد مؤقتا عن توجيه الدعوة الى قريش واكتفى بعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج لعل قبيلة تصغى اليه فينتقل اليها ويبلغ دعوته فى ظلها وسلطانها . فكانت القبائل ترد عليه بانه لو كان صادقا لاتبعه قومه ، الا ما كان من أمر اهل يثرب . ففى عام ١١ للنبوة لقى النبى عند العقبة ستة نفر من الخزرج فعرض عليهم الاسلام فآمنوا وصدقوا ، ووعدوه أن ينشروا الدين الجديد فى قومهم . تلك بيعة العقبة الأولى . فلما كان العام القابل وافى الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا ، لقوا النبى عند العقبة ايضا فبايعوه على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يشرع القتال « على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف . فأن وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم من ذلك شيئا فأمركم الى الله عز وجل ، أن شاء غفر ، وأن شاء عذب » تلك بيعة العقبة الثانية ، وبعث الرسول معهم صاحبا من اصحابه دينا لبقا فطنا ليفقه القوم فى الدين ، وفى الوقت نفسه ليخبر أحوال يثرب العامة ويسبر غورها وينهى الى النبى ما يصل اليه من ذلك . ذلك هو مصعب بن عمير . وقد أدى مصعب بن عمير واجبه أحسن أداء وأتمه ، ثم عاد الى مكة فاطلع الرسول على حال يثرب ومقدار نجاح الدعوة الأسلامية بها . فلما حل موسم الحج وافى مكة جم غفير من الاوس والخزرج ، مسلمهم ومشركهم . فواعد المسلمون منهم رسول الله ان يلقوه عند العقبة ليلا ، وقد لقيه منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، فبايعوا الرسول بيعة العقبة الكبرى المشهورة وهى تقوم على تعهد الاوس والخزرج بالدفاع عن الرسول والحرب من دونه . يقول الطبرى « فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة واعطوه عهودهم ، على انا منك وانت منا ، وعلى أنه من جاءنا من اصحابك أو جئتنا فانا نمنعك مما نمنع منه انفسنا ، وبهذه البيعة أصبح للرسول يثرب أنصار يؤوونه ويذودون عنه .

***

لكى ندرك السبب فى مسارعة الاوس والخزرج الى قبول الدعوة الاسلامية ومبايعة الرسول على الدفاع عنه ، ينبغى أن نلم بحال يثرب فى السنوات السابقة على الهجرة من الناحيتين الدينية والسياسية ، فمن الناحية الدينية كانت اليهودية قد حرثت المدينة وأعدت الأنصار لقبول الدعوة الاسلامية ، لأنهم اهل كتاب منزل ودين مشروع . وكان الأوس والخزرج يلقفون منهم معنى النبوة والرسالة والوحى ونحو ذلك من المصطلحات الدينية . ثم أن اليهود كانوا كدأبهم يتوقعون ظهور نبى منهم يجمع شملهم ويعيد اليهم سلطانهم ويقهر بهم أعداءهم ، وكانوا لا يعدمون أن يبوحوا بشىء من ذلك لمواطنيهم من الأوس والخزرج . قال ابن اسحق عند كلامه على استجابة الانصار لدعوة النبى فى بيعة العقبة الاولى : « وكان مما صنع الله لهم به فى الاسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم . فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم ان نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وأرم . فلما كلم رسول الله (ص) أولئك النفر دعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلموا ، والله انه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم اليه ، فاجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام » .

قد يكون تصوير حالة المدينة السياسية قبيل الهجرة أبلغ من تصوير الحال الدينية فى فهم قبول الأنصار دعوة النبى والتزامهم الدفاع عنه ببلدهم . لقد كانت الحياة العامة بالمدينة مضطربة أشد الاضطراب من جراء حرب الاوس والخزرج التى سببها ما كان بين الفريقين من دماء وثارات . وكانت الغلبة بوجه عام فى تلك الحرب للخزرج على الأوس ، حتى لقد همت الأوس حوالى السنة العاشرة قبل الهجرة ان تجلو عن المدينة جملة ، وأخذت تفاوض قريشا فى ان تأذن لها بالنزول عليها بمكة ، ولكن قريشا كانت أحرص من ان تأذن بذلك ، فلما طلبت اليها الأوس ان تحالفها على الخزرج أبت ان تتورط فى شىء من ذلك أيضا . فعادت الاوس تلتمس الحلف من يهود يثرب وخاصة قريظة والنضير . وكان اليهود قد وقفوا من تلك الحرب موقف الحياد المطلق ، فلما بلغ الأمر الخزرج أرسلت الى اليهود تحذرهم عاقبة هذا الحلف ان تم ، فلما أكد اليهود أنهم غير محالفى الاوس عادت الخزرج تطلب منهم رهنا اربعين غلاما من غلمانهم يكونون بأيديهم ضمانا لهذا الحياد . فلم يسع اليهود ألا أن يسلموا اليهم الضمان الذى طلبوا . ولكن الخزرج كانت قد قرمت الى ارض قريظة والنضير وكانت أغنى بقاع يثرب ، فأقبلت تتجنى على اليهود وتخير قريظة والنضير بين أمرين كلاهما شر . فاما ان يجلوا عن يثرب

وينزلوا لهم عن أرضهم ، وإما ان تقتل غلمانهم . فلما رأت اليهود ان الخزرج قد لجت فى طغيانها ، وان حيادها لن يجر اليها خيرا ، عند ذلك خرجت من حيادها وحالفت الأوس صراحة ، فقتلت الخزرج الغلمان وعقدت حلفا مع القبيلة اليهودية الثالثة بالمدينة قبيلة بنى قينقاع وبذلك استحالت يثرب عسكرين تشحذ فيهما السيوف وتراش النبال استعدادا للواقعة الفاصلة .

وقد وقعت الواقعة الفاصلة فى يوم بعاث الذى كان قبيل الهجرة بنحو خمس سنين . فى ذلك اليوم أديل للأوس وحلفائها من الخزرج وحلفائها ، وقتل من الفريقين يومئذ عدد كبير من سادات الناس وأشرافهم . جاء فى صحيح البخارى عن عائشة : « كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ، صلعم ، فى دخولهم فى الاسلام ، فقدم رسول الله صلعم وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم ، ويفسر السهودى هذا الحديث بقوله « ومعناه انه قتل فيه من أكابرهم من كان لا يؤمن ان يتكبر ، ويأنف ان يدخل فى الاسلام » الى ان يقول « وقد كان بقى معهم من هذا النمط عبد الله بن أبى بن سلول . . . . وكذلك ابو عامر الراهب . . فشقيا بشرفهما » .

ورأى أهل يثرب غداة يوم بعاث أن الحرب مهلكة النفوس متلفة الاموال ، وأنها يشقى بها الغالب والمغلوب جميعا ، وأنه أولى بهم أن يقيموا بيثرب حكومة تزع القوى وتأخذ بناصر الضعيف . وكان عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى قد رأى غدر قومه فى الحرب فلم يخض غمارها معهم وامتنع من قتل من كان بيده من غلمان يهود ، ولذلك اتجهت اليه أنظار القوم وهموا ان يملكوه على يثرب ، وأقبلوا ينظمون له الخرز ، وكان ذلك شارة الملك عندهم . ولكن يظهر أنه لم تكن هناك رغبة صادقة فى تمليكه . أما الأوس فكانت تكره أن يصير الأمر الى خزرجى مهما تكن فضائله ، وأما الخزرج فقد كبر على كثير من أحيائها أن تولى رجلا وسمها بالغدر وخذلها عند الحرب ، فكان بذلك مسؤولا الى حد ما عن هزيمتها . وأما اليهود فلا شك فى أنها كانت تستكف أن يلى أمرها مشرك ولو كان ابن أبى نفسه .

فلما التقى حجاج الأوس والخزرج الرسول بموسم الحج وأطلعوا على سيرته وحالته وجدوا فيه ضالتهم المنشودة . فهو وحده الرجل الذى تستقيم على يده حالهم المختلة ، وتجتمع على حكومته أراؤهم المختلفة ، هو نبى عربى يتنزل عليه الوحى من السماء ، وبذلك يحتجون به على اليهود . نعم إنه من الناحية السياسية يعتبر أجنبيا عن يثرب ، ولكن حكومته لن تكون أجنبية . اليس الانصار هم الذين سيكونون عدته ومادته ؟ فأى حكومة ليثرب يمكن أن تفضل هذه الحكومة ؟ اذن فليعدلوا عن تمليك ابن أبى ، وليبايعوا محمدا ، وليكن ذلك فى غيبة ابن ابى وليكتموا ذلك الأمر عنه كتمان النبى إياه عن قريش .

تلك كانت الحال المعنوية للانصار عندما بايعوا النبى بيعاتهم الثلاث بمكة . قال بن اسحق عند كلامه على العقبة الأولى « . . . وقالوا له (للنبى) انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك » ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم وروى ابن اسحاق أيضا عند كلامه على بيعة العقبة الكبرى « . . . فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها ، يعنى اليهود ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال بل الدم الدم ! والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . فالمسألة من ناحية الانصار لا تعدو أن تكون حلفا سياسيا قوامه الفكرة الدينية . أما من ناحية الرسول فلم تكن كذلك . فالرسول انما كان يريد اذ ذاك بلدا يأمن فيه على دعوته واصحابه ، وقوما يحمون ظهره حتى يبلغ رسالته . وقد أصبح ذلك مكفولا له بالبيعة الاخيرة ، واذن فلم يبق الا الرحيل من مكة الى المدينة

* * *

ورأى الرسول اغتنام الوقت فأذن لأصحابه فى الخروج إلى يثرب فى أواخر ذى الحجة من السنة الثالثة عشرة للنبوة . فجعلت جماعاتهم عند ما استهل المحرم تخرج من مكة أرسالا وتنزل على الانصار فى دورهم . فخرج فى نحو شهرين زهاء المائتين . وقد أقفرت دور برمتها بسبب الهجرة . من ذلك دور بنى مظعون وبنى جحش وبنى البكير . قال ابن هشام « فغلقت دار بنى جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام ابن المغيرة . . . وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر اليها عتبة ابن ربيعة تخفق أبوابها يابا ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وان طالت سلامتها يوما ستدركها النكباء والحوب

ثم قال هذا عمل ابن أخي هذا ، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا » ولم يبق بمكة من المسلمين الا النبي وأبو بكر وعلي وإلا من كان مفتونا أو محبوسا أو مريضا أو ضعيفا عن الخروج .

وأحست قريش الخطر الذي أصبح يتهددها من جراء تلك الهجرة وذلك الحلف الذي عقده محمد مع أهل يثرب . فاجتمع ملؤها في دار ندوتها ليقلب الأمر على وجوهه ويصدر فيه رأيا حاسما . وهنا افترقت بها الآراء وتشعبت المذاهب ، فمنهم من رأى أن يحبس محمد حتى يموت ، ومنهم من رأى أن ينفى من البلد ، ومنهم من رأى قتله . والظاهر أن الرأي الأخير هو الذي اجتمعوا عليه آخر الأمر . وإلى هذه القصة كلها يشير القرآن بقوله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ثم رأوا أن يقتلوه بحيث تمتنع على عشيرته المطالبة بدمه فاموا فتيانا من بطون قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد وبذلك يتفرق دمه في القبائل ويرضى بنو هاشم بديته .

ولكن رسول الله كان قد نذر بذلك فأسرع إلى الخروج متخفيا من داره الى دار صديقه أبي بكر وكان قد أعد عدة السفر الى المدينة ، دليلا وظهرا وخادما وزادا . وخرج الرسول وابو بكر الى غار بجبل ثور بقيا به ثلاثة أيام اهتاجت فيها قريش أهتياجا شديدا وجعلت لمن يأتي بالنبي حيا أو ميتا جعلا سنيا . والى حادث الغار يشير القرآن بقوله « الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه ، لا تحزن ، ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز ذو انتقام » .

توصف الارض التي بين مكة والمدينة بأنها حزنة وعرة موحشة ، ليس بها ما يرفه عن المسافر في بلاد العرب من ماء او خضرة ثم هي يشقها طريقان : أحداهما شرقية محاذية لنجد ويجاوز طولها الثلاثمائة ميل بقليل ، والآخرى غربية محاذية لساحل البحر الاحمر ويقرب طولها من مائتين وخمسين ميلا . وقد آثر الدليل الذي اتخذه ابوبكر هاديا له وللرسول أثناء السفر سلوك الطريق البحرية . غير انه كان ينحرف يمنة ، ويسرة تضليلا لمن عسى ان ترسله قريش في اثرهم . فخرج بالجماعة من جبل ثور اسفل مكة فبلغ عسفان وهنا أدرك الجماعة سراقة بن مالك طامعا في قتل الرسول وأخذ جعل قريش ، ولكنه وجد نفسه أمام اربعة أشداء . فكان قصاراه ان نجا بنفسه بعد ان أعطى الرسول وأصحابه موثقا الا يدل عليهم . ثم سار الدليل بهم الى أمج فقديد ، فلما قارب بدرا مال بهم يمنة الى العرج ، ثم هبط وادي العقيق الذي يؤدي الى المدينة . ولكن النبي أمر بأن يكون المسير اولا الى قباء قرية بني عمر بن عوف . فبلغها ظهر يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الاولى للهجرة وذلك بعد مسير ثمانية أيام . وأقام النبي ثلاثة أيام بقباء رئق فيها من حسن ستقباله بالمدينة . فلما كان يوم الجمعة خرج من قباء الى المدينة يحف به ملأ بني النجار . وقد لحقه بقباء علي بن أبي طالب بعد ان ادى عن الرسول ما كان للناس عنده من الودائع . ولما أطمأن الرسول بالمدينة انفذ الى مكة من حمل اليه أهل بيته .

***

ليس يسيرا على المؤرخ أن يصور مقدار المشقة التي لحقت المهاجرين الأولين من جراء هجرتهم من وطنهم الى بلد ناء ومعشر غرباء . لقد كان أول مظهر لهذه المشقة أن تأثروا بجو المدينة الوخم لأول قدومهم فاعتلت صحتهم وأصابتهم الحمى وعراهم داء الحنين

الى وطنهم القديم ، حتى لقد كان بعضهم يهذى بذلك اذا أخذه دوار الحمى . روى البلاذرى باسناده عن عائشة أم المؤمنين انها قالت « لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة مرض المسلمون بها فكان ممن اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة . فكان أبو بكر يقول فى مرضه :

كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال يقول :

الا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بفخ وحولى أذخر وجليل !
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل تبدون لى شامة وطفيل !

وكان عامر بن فهيرة يقول :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ان الجبان حتفه من فوقه
كل امرىء مجاهد بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه

قال فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا مكة ، وبارك لنا فى مدها وصاعها » .

وتمثل هذه المشقة كذلك فى الفاقة الشديدة التى صار اليها المهاجرون بسبب الهجرة . فقد خلف اكثرهم أمواله بمكة فعدت عليها قريش فاغتصبتها تشفيا من أصحابها . روى صاحب أخبار مكة « انه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح (فتح مكة) الا تنزل منزلك بالشعب ؟ قال وهل ترك لنا عقيل منزلا . قال وكان عقيل ابن أبى طالب قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنازل أخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ومنزل كل من هاجر من بنى هاشم ، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل فى بعض بيوت مكة فى غير منزلك . فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا أدخل البيوت ، فلم يزل مضطربا بالحجون وكان يأتى المسجد من الحجون » ويروى ابن هشام أن عبد الرحمن بن ابى بكر عدا على مال أبيه بمكة بعد هجرته ، فلما كان يوم بدر خرج عبد الرحمن مع قريش لقتال المسلمين فناداه ابوه : أين مالى ياخبيث ؟ فأجابه عبد الرحمن :

لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب

ويروى ابن هشام كذلك « أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريدان تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب . أرأيتم أن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا نعم ! قال فانى جعلت لكم مالى . قال فبلغ ذلك رسول الله (صلعم) فقال : ربح صهيب ! ربح صهيب ! » ويروى ابن اسحق أنه « لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان ابن حرب فباعها من عمرو بن علقمة . . . . فلما بلغ بنى جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله (صلعم) . فقال له رسول الله (صلعم) ألا ترضى ياعبد الله أن يعطيك الله بها دارا خيرا منها فى الجنة ؟ قال بلى ! قال فذلك لك . فلما افتتح رسول الله (ص) مكة ، كلمه ابو أحمد فى دارهم فأبطأ عليه رسول الله (صلعم) . فقال الناس لأبى أحمد ، يا أبا أحمد ! ان رسول الله (صلعم) يكره أن ترجعوا فى شىء من أموالكم أصيب فى الله عز وجل ، فأمسك عن كلام رسول الله (صلعم) (فيها) » ومما يدل على شدة فقر المهاجرين لأول عهدهم بالمدينة أن الرسول عند ما خرج بهم الى وقعة بدر فى السنة الثانية للهجرة دعا الله فى رواية الواقدى فقال : « اللهم انهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك » .

من أجل تلك الفاقة كان المهاجرون فى السنوات الأولى من الهجرة عالة على الانصار . وذلك مظهر ثالث للحوق المشقة بهم . نعم ان الانصار أكرموا وفادتهم كل الاكرام وواسوهم اتم المواساة ، ولكن تلك الحال ليس من السهل على كرام النفوس احتمالها . يروى البلاذرى أن النبى عندما أراد قسمة غنائم بنى النضير قال للانصار : « ليست لاخوانكم من المهاجرين أموال ، فأن شئتم قسمت هذه واموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة . فقالوا بل اقسم هذه فيهم وافسم لهم من أموالنا ما شئت . فنزلت (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فقال أبو بكر : جزاكم الله يامعشر الانصار خيرا ، فوالله ما مثلنا ومثلكم الا كما قال الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا تلاقى الذى يلقون منا لملت
فذو المال موفور وكل معصب الى حجرات أدفأت وأظلت

من أجل تلك المشقة التى نالت المهاجرين الاولين فى سبيل الله اعتبر القرآن هجرتهم هجرة الى الله ورسوله ، ومن أجلها جعل أولئك المهاجرين أرفع طبقات المسلمين درجة وأجزلهم مثوبة ، وفرض مثل هجرتهم على كل مسلم عند خوف الفتنة ولحوق الضيم ، قال تعالى « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا : الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا .